الأزهر فى العصر الأيوبى
(٥٦٧ - ٦٤٨ هـ/ ١١٧١ - ١٢٥٠م)

عاش الأزهر جنبا إلى جنب مع دار الحكمة فى ظلال العصر الفاطمى، وكانت دار الحكمة حقًا منافسًا شديد الوطأة عليه، لكنه صمد وظل الجامع الرسمى للدولة، والجامعة التى استقرت فيها الدراسات الدينية المذهبية واللغوية والأدبية، إلى أن قضت الدولة الفاطمية فى الثالث من المحرم سنة ٥٦٧هـ الموافق السادس من سبتمبر سنة ١١٧١م، بعد أن ازدهرت فى عصرها حضارة من أعظم حضارات مصر زهاء قرنين من الزمان.

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب رجلا من الرجال المقدمين فى مصر آنذاك: كان وزيرًا للخليفة الفاطمى العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله، وفى نفس الوقت نائبًا للسلطان السنى نور الدين محمود، وقائدًا لقواته، وكانت هذه فى الحقيقة مفارقة جادة!!

كان واضحًا أن الدولة الفاطمية تعانى سكرات الموت وتغالبها. وتلقى صلاح الدين أمرًا من السلطان نور الدين محمود بألا يذكر اسم الخليفة الفاطمى فى خطبة الجمعة، بل يذكر بدلًا منه الخليفة العباسى المستضىء بنور الله، وصدع صلاح الدين بما أمر به فى مطلع شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ، وكانت هذه هى النهاية الرسمية للدولة الفاطمية فى مصر، التى كان فيها الأزهر ملء السمع والبصر والفؤاد جميعًا.

وأسس صلاح الدين دولته السنية بعد أن خاض غمار أخطار جمة فى الداخل والخارج واستطاع أن ينال من الخليفة العباسى لقب سلطان فى

سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦م. وكان نصب أعين الدولة السنية أن تقضى على المذهب الشيعى قضاءً، وأن تستأصل شأفته، وتهدم معاقله. وأوغلت فى لدد الخصومة للمذهب الشيعى إيغالًا بعيد المدى، وانطلق صلاح الدين، وكان شافعيًا متحمسًا فى تنفيذ هذا الهدف دون هوادة أو كلل أو ملل، فأبطل عبارة «حى على خير العمل»، التى يميز بها الأذان عند الشيعة، وعزل قضاة الشيعة، وولى القاضى الشافعى صدر الدين عبد الملك بن درباس، وينوب عنه فى أرجاء مصر قضاة شافعية.

وكان هذا الإجراء توطئة لهدف صلاح الدين الواضح الجلى: النيل من الأزهر، الرمز الباقى من الدولة الفاطمية! ذلك أن قاضى القضاة أفتى بأنه لا يجوز فى ضوء المذهب الشافعى أن تقام صلاة الجمعة فى مسجدين بمدينة واحدة، فأبطل الصلاة بالجامع الأزهر، على أن تقام بالجامع الحاكمى، وهو جامع له الطابع الشيعى كذلك، لكن ابن درباس أدرك أن هذا الجامع لا يمكنه أن يطاول الجامع الأزهر، الذى ارتبط فى أذهان الناس بالدولة الفاطمية، فهو مسجدها الرسمى، منذ إنشائه، الذى تقام فيه معظم الصلوات التى يحضرها الخليفة الفاطمى، وتقام فيه الاحتفالات بالأعياد والمولد النبوى الشريف. والهدف سياسى، لا تفسير آخر له! واقترن بإلغاء صلاة الجمعة بالجامع الأزهر، الذى تعرض بناؤه للتصدع بعد أن استطالت مدة تعطيل صلاة الجمعة فيه زهاء ثمان وتسعين سنة، إجراء آخر لا يقل تعسفًا أو افتئاتا: ذلك أن صلاح الدين قد قطع عن الأزهر كثيرًا من الأوقاف التى كان الحاكم بأمر الله وسواه من الخلفاء الفاطميين قد حبسوها عليه. وما برح بعض الناس أن اغتصبوا بقية من بواقى هذه الأوقاف، ولم تحرك الدولة الأيوبية ساكنا! بل لعلها أن تكون قد اطمأنت إلى هذا التصرف الغوغائى ورحبت

به، فلم تكن السياسة الأيوبية فى لحمتها وسداها إلا مستهدفة موتًا بطيئًا للأزهر الشريف: الرمز الفاطمى الخالد!

ولم يكن هذا كافيًا من وجهة نظر الأيوبيين لطمس أهمية الأزهر- جامعًا- والنيل منه والتنقص له، ولكن كان هناك الشق الآخر الموجه ضد الأزهر- جامعة- كما يقول الدكتور عبد العزيز الشناوى فى كتابه: «الأزهر جامعًا وجامعة». وكانت الدراسات الدينية المذهبية فى الأزهر، ومنها الفقه الشيعى على مذهب الإمامة الإسماعيلية، وما يتصل به من علوم، قد ألغيت تمامًا بمجرد سقوط الدولة الفاطمية، واتخاذ مصر الرسمية للمذهب السنى. هذه الدراسات الدينية التى كانت مقدمة على الدراسات اللغوية والأدبية، وكانت دار الحكمة قد أخنى عليها الزمان، فبدأ صلاح الدين فى إنشاء مجموعة من المدارس أو الكليات تقوم بتدريس المذاهب السنية ونشرها على مستوى رفيع، وأنفق عليها من بيت المال. وكان يقوم بالتدريس فى هذه المدارس نخبة من كبار الأساتذة المتخصصين، تعاونهم هيئات تدريس ومجموعات من المعيدين. ولم تكن هذه المدارس من بنات أفكار صلاح الدين، لكنها كانت فكرة مقتبسة من السلطان نور الدين الذى قام بإنشاء الكليات السنية ذات المذهب الحنفى فى دمشق وسواها من مدن الشام. والحق إن السلطان نور الدين نفسه كان ينحو نحو السلطان ملكشاه السلجوقى الذى ابتنى له وزيره نظام الملك- صاحب عمر بن الخيام- المدرسة النظامية فى بغداد. وإذا كانت هذه المدارس التى أنشأها صلاح الدين قد اجتذبت مجموعة من كبار رجال العلم فى أنحاء العالم العربى، فقد أصابت فى الحقيقة الأزهر- كجامعة- بما يشبه الشلل.

والحق أن صلاح الدين قد شرع فى تنفيذ هذا المخطط الثنائى لضرب الأزهر- جامعًا وجامعة- قبيل أن يقطع الخطبة بالأزهر للخليفة الفاطمى،

ويقيمها للخليفة العباسي. بناءً على أمر السلطان نور الدين الذى كان شديد الكراهة لمذهب الشيعة، بعد أن آثر التمهل والتريث، وكتب إلى نور الدين بالخوف من وثوب المصريين عليه لميلهم المعروف إلى العلوية. ولم يقم بما قام به إلا بعد أن تثبت من تهالك الخلافة الفاطمية فى مصر، وأنه لم يبق للفاطميين منعة هنا فقط لم يتردد فى تنفيذ ما عقد عليه العزم وصحت عليه إرادته.

وفى الحق فإن صلاح الدين قد واجه ثورتين عارمتين. كانت أولاهما أشد خطرًا، لأن مخططيها استعانوا بقوى خارجية إسلامية وصليبية. وقد كشفها صلاح الدين قبيل تنفيذها وصلب زعماءها سنة ٥٦٩هـ، وكان منهم القاضى العوريس داعى الدعاة الشيعى، والشاعر المعروف عمارة بن أبى الحسن اليمنى. وكان قد قدم مصر سنة ٥٥٠هـ على عهد الخليفة الفاطمى الفائز، ووزيره الأديب طلائع بن رزيك. فغمراه بإحسانهما، وظل موضع عطف الخلفاء الفاطميين. وله قصيدة سائرة فى رثاء الدولة الفاطمية يقول فيها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حَلْى الحسن بالعطل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... شقيت، مهلًا. أما تمشى على مهل؟
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن ... كمالها أنها جاءت ولم أسل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفًا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ... ورث منها جديد عندهم وبلى

وموسم كان فى كسر الخليج لكـــم يأتى تجملكم فيـه علـى الجُمَـــل
وأول العام والعيـدان كـم لكمـــو فيهن من وَبْل جود لـيس بالوشـل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بمـــا يهتز ما بين قصريكم من الأســـــل

أمـا الثورة الثانية فقد اشـتعل أوارها فى أسـوان، هاجمت قواتها مدينة قوص، وقضى عليها صلاح الدين فى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م.

وكانت الكليات التى أنشـأها الأيوبيون ذات كثرة كثيرة، واسـتمرت فى الزيادة على عهد المماليك البحرية، فهم قد حاكوا سـلاطين الدولة الأيوبية فى إنشاء الكليات لمحاربة المذهب الشيعى، الذى ظل كثير من آثاره باقيًا، علـى الرغم من كل الجهود التـى بذلها صلاح الدين ومن تبعه من الأيوبيين فى محاربته، كما توسـع المماليك البحرية فى إنشاء الكليات تقربًا إلى الله، وذلك بجعلهم الدراسـات السـنية فى موقع الصدارة من المقررات الدراسية. كمـا أخذت هذه الكليات أو المـدارس على عهد الأيوبيين بنظام التخصص، حتى لا تكون فى مستوى علمى يقل عن مستوى الدراسة فى جامعة الأزهر. ونعنـى بنظام التخصص هنا أن كل كلية كانـت تقوم- غالبًا- على تدريس مذهـب معين من المذاهب السـنية الأربعة، لكن أغلبهـا كان متخصصًا فى دراسة المذهب الشافعى، المذهب الرسمى للدولة.

كانت أول كلية أنشأها الناصر صلاح الدين هى المدرسة الناصرية لتدريس الفقه الشـافعى: أقام بناءها على مقربة من المسـجد العتيق بالفسطاط، وما لبثت هذه الكلية أن اشـتهرت باسم مدرسـة ابن زين التجار، وهو العباس أحمد بن المظفر بن الحسـين الدمشـقى، أحد أعيان الشـافعية، وكان أول مـن تولى التدريس فيها، ولبث فيها سـنين عددا، ثـم أصبحت تعرف من بعد باسم المدرسة الشـريفية، نسبة إلى الشريف قاضى العسكر شمس الدين

أبى عبد الله محمد بن الحسين بن محمد. وإلى جانب المسجد العتيق ابتنى صلاح الدين المدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكى، وسميت بالقمحية لأنها كانت توزع على مدرسيها ومعيديها وطلبتها القمح، كانت تغله عليها ضيعة موقوفة عليها.

ونلاحظ أن صلاح الدين أنشأ المدرستين الأولى والثانية فى السنة الأخيرة من عهد الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين. كما أنشأ صلاح الدين كلية ثالثة هى المدرسة السيوفية- وعرفت بهذا الاسم لأنها كانت تطل على سوق السيوفيين بالقاهرة- لتدريس الفقه الحنفى، وهى أول مدرسة وقفت على الفقه الحنفى فى مصر. كما شيد صلاح الدين مدرسة رابعة إلى جوار قبة الإمام الشافعى فى قرافة مصر، سماها المدرسة الناصرية بالقرافة، أو المدرسة الناصرية الصلاحية، خصصت كذلك لدراسة المذهب الشافعى، وقام بالتدريس فيها أساتذة كبار.

وتطور التعليم فى المعاهد السنية فظهرت الكليات المخصصة لتدرس علم الحديث مثل الكلية الكاملية التى أنشأها الكامل ناصر الدين محمد السلطان الأيوبى الخامس، ثم جعل بعض الكليات يطور من برامجه لتدريس الفقه الحنبلى، فغدت الدراسة فى هذه الكليات- أو المدارس- تشمل تدريس المذاهب الأربعة، ومثال ذلك الكلية الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سابع السلاطين الأيوبيين وآخرهم. وكان من مظاهر تطوير الدراسة فى هذه الكليات إدخال بعض العلوم الجانبية فى برامجها، فإلى جانب الفقه والحديث والتفسير والقراءات والمنطق والحساب أضيف النحو والبلاغة وعلم الهيئة (الفلك) والهندسة والموسيقى، وعلى مستويات متباينة حسب الحاجة إليها.

ولقى الأزهر أيضًا منافسة شديدة الوطأة فى الحلقات الدراسية التى ظلت قائمة ومزدهرة فى عدد من المشاهد والجوامع كمشهد الإمام الحسين، ومشهد السيدة نفيسة وضريح الإمام الشافعى، وجامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون، وجامع الحاكم بأمر الله.

وكنتيجة لهذه السياسة الأيوبية انكمشت الدراسة بالجامعة الأزهرية فهجرها كثير من طلابها، بعد أن هجرها أغلب شيوخها إلى تلك الكليات، فقد اجتذبتهم الرواتب المغرية والمكافآت السخية، التى أغدقها عليهم سلاطين الدولة الأيوبية، بل لقد تنافس شيوخ الأزهر على الظفر بالتدريس بهذه الكليات!

وعلى الرغم من كل هذا، فقد ظل الأزهر العريق قبلة كبار العلماء الذين وفدوا إلى مصر خلال العصر الأيوبى، وما بعده، أعانه على ذلك أنه ظل مفتوحا للطلاب من كل مذهب سنى، على النقيض من أغلب تلك المدارس التى آثرت التخصص فى مذهب واحد أو مذهبين على أقصى تقدير، فظل مجال الدراسة فيه رحبًا متنوعًا، وظل الأزهر مقصد الطلاب الغرباء من كل صوب، وكان يقطن بأروقته عدد كبير منهم. بلغت عدتهم فى أوائل القرن الثامن- على قول المقريزى- ٧٥٠ طالبًا.

كما لبث الأزهر مقصد كبار العلماء من طبقة عبد اللطيف البغدادى الذى قدم مصر سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م على عهد السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين. وقام البغدادى على تدريس المنطق والبيان فى الأزهر بضع سنين، حتى قضى السلطان الملك العزيز سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م. كما شهد الأزهر نشاط جمهرة من أعلام العصر فى طليعتهم العلامة الشاعر الصوفى المصرى الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض، الذى أقام ردحا

بالجامع الأزهر، وعقد فيه حلقاته الصوفية والروحية إلى أن جاز إلى ربه سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤ - ١٢٣٥م، والشيخ جمال الدين الأسيوطى، والشيخ أبو القاسم المنفلوطى، والشيخ شهاب الدين السهروردى، والمؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب «وفيات الأعيان»، الذى قدم القاهرة سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م، فلبث حينًا من الدهر يلقى دروسه بالجامع الأزهر.

ومن أبرز علماء الأزهر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الشيخ العز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، الذى كانت له صفحات مجيدة تلقاء الحكام، مثل معارضته ولاية شجرة الدر، من منطلق أن الولاية لا يصح أن تكون لامرأة. كذلك عارض السلطان نجم الدين أيوب فى تأميره الأرقاء الأتراك على البلاد، فأصدر فتوى ببيع هؤلاء الأمراء الأرقاء، وصرف أثمانهم فى وجوه الخير فى حالة السلم، وفى التعبئة فى حالة الحرب، ولم يثن الشيخ تهديد أو وعيد.

وإن كثيرًا من الشعراء اللامعين فى هذا العصر كابن سناء الملك، وابن النبيه وابن الساعاتى، وابن مطروح كانوا ثمرات ثقافة الأزهر اللغوية والأدبية.

وهكذا ظل الأزهر نابضًا بالحياة، يمشى مستأنيًا فى تؤدة، لكن فى ثقة وثبات، وبقى من هذه المدارس كقول الشاعر:

كالبحر يمطره السحاب وماله   فضل عليه لأنه من مائه

***